obeikandl.com

obeikandl.com

# فلسفة القوة

فى علم الفيزياء يحتاج ضغط المادة فى شكلها الصلب أو السائل أو الغازى إلى قوة ضاغطة، فيصغر حجم المادة وتزيد كثافتها، وعندما تحرر المادة من الضغط تتولد طاقة تعادل الطاقة التى بذلت فى عملية الضغط. . إذا أحدث الضغط قوة صغيرة نسبياً ولكن على مدى زمن طويل، فإن الطاقة المولدة نتيجة التحرر من الضغط تعادل تراكم القوى الصغيرة على المدى الزمنى الطويل، وهذه الطاقة المحررة ستكون ذات قوة هائلة بالنسبة لقوة الضغط نظراً لأن عملية التحرر تستغرق وقتاً قليلاً.

لقد بدأ الكون بكرة صغيرة فى حجم البرتقالة شديدة الكثافة والانضغاط، شديدة الحرارة، وتحوى هذه الكرة على بلايين البلايين من الكيلو جرامات من مواد الكون، وحدث الانفجار العظيم (Big - Bang) منذ حوالى خمسة عشر بليون سنة، وانتشر الكون فى الفراغ اللانهائى وتناثرت المكونات، وانخفضت درجة الحرارة نسبياً وتكونت النجوم والكواكب ، وفى التاريخ المتأخر للكون بدأت الحياة على ظهر كوكب الأرض.

الإنسان أيضاً صورة أخرى من صور القوى والطاقة، الضغط والتحرر، السخونة والبرودة، يضغط على الإنسان قوى الانفعال والألم، ويؤثر فيه تفاعلات كيميائية مستمرة منذ الولادة وحتى الوفاة، يعيش الإنسان بغرائز متوارثة فى جيناته، وتجارب متراكمة طوال سنوات عمره، والألم الانفعالى هو القوة الضاغطة على الإنسان، وكلما زادت القوة وزاد مداها الزمنى كلما زادت الطاقة الكامنة داخل الإنسان، وبمقدار استيعاب الإنسان لهذه الطاقة من الألم وقدرته على تحملها، تقيم قوته الذاتية ومرتبته الإنسانية بين البشر، لقد تحدث عبدالرحمن بدوى فى هذا المجال فى كتابه عن الفيلسوف الألمانى فريدرش نيتشه رائد فلسفة القوة والإنسان الأعلى: «الألم لازم للبطل لأن الحياة ليست خضوعاً - وبمقدار استعداد المرء للتألم، تكون درجته فى سلم التصاعد الإنسانى، فأقدر الناس على تحمل الألم، وأسرعهم

إلى خلقه والإقبال عليه، أرفعهم فى درجة الإنسانية، والمعرفة تسمو والشعور يعلو، بالقدر الذى يكبر به الألم ويزداد التألم. . فإذا استطاع المرء إذاً أن يعانى أكبر مقدار من الألم، وأوفر نصيب من التألم، ارتفع إلى درجة جديدة وطور آخر، هو دور السرور الصادر من أعمال الألم، هو القمة العليا التى يصل إليها المرأ بعد أن يكون قد صعد جبلاً من الآلام ومر بأشد الصعوبات واقتحم أقوى العقبات وأبعدها عن الهزيمة والتسليم».

لخص نيتشه فلسفته فى قوله: « كى نجنى من الوجود أسمى ما فيه، عش فى خطر»، ما هو الخطر، هل هو الشىء الضار لأنفسنا والنافع للآخرين، أم هو الشىء الضار لأنفسنا وللآخرين، أو هذا الخطر هو الذى يحرر طاقتنا الانفعالية من داخلنا فنعيش الحياة بكل ما فيها من تضاد وتباين، من شد وجذب، من انتصار وهزيمة، من حب وكره، نعيشها بكل ما فيها من آلام وأحزان، ومن سعادة وشقاء، نذوب فى مشاكلها ، نصارع ونقاوم، من أجل أن نحى سنوات عمرنا فى أعلى درجات الإنسانية بما تحتويه هذه الكلمة من مشاعر مختلفة وانفعالات متعددة. نتفاعل مع الآخرين بسلوك إنسانى ليس له حدود إلا ضمير منزه يحكم مابين الشر والخير، وعقل ذكى يفرق ما بين الضار والنافع، وروح سامية تهدينا إلى السلام مع أنفسنا ومع المجتمع والطبيعة. . واقع نعيشه بكل ما فيه من تناقضات، وقوى مادية نتأثر بها ونأثر فيها.

وضع الإنسان القيم قبل نزول الأديان السماوية، فوصف بعض الأفعال بالخير والأخرى بالشر، وفرق الإنسان بين الباطل والحق، ووضع مقاييس ومعايير للجمال والقبح، للكرم والبخل، للشجاعة والتخاذل، وتفلسف الإنسان عندما شعر بالألم والمعاناة وعندما عاش فى فراغ وقتى بعد إشباع حاجاته الأولية. اختلفت القيم والمعايير الموضوعة من فرد لآخر ومن مجموعة لأخرى، وتداخلت المصالح والأهواء مع ضمائر غريزية . . اختلفت قيمة الشىء باختلاف الناس فكان النزاع والصراع ونشبت الحروب، فما أراه حق لى قد تراه أنت باطل، وما قد أراه أنا جميل قد تراه أنت قمىء، لقد اختلفنا فى قيمة الأشياء المادية كما اختلفنا فى تفسير المشاعر

والسلوك، فالصراع والصدام يمكن وصفه بالشجاعة من بعض الناس كما يسمونه آخرين بالتهور، الاستسلام والمهادنة قد يوصفا أحياناً بالخنوع وأحيانا أخرى بالسلام.. بدأ الصراع منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا لا يقر طرف من أطراف النزاع بأنه المخطأ، للخطأ مبررات كثيرة تبدأ بالحاجة المادية من طعام وشراب، ومسكن، وملبس، وشهوات غريزية، وتنتهى بالرد على إساءة أو الرد على عدوان.

بالرغم من أن عقيدة زرادشت قد جاءت من بلاد فارس فى العصور القديمة ووصف العالم بأنه صراع دائم بين الخير والشر، فقد أوحت هذه العقيدة لنيتشه بفلسفة القوة وبالإنسان الأعلى، فهو القائل: حيث توجد حياة، توجد أيضاً إرادة، أرادة قوة لا أرادة حياة.

فى تعريف نيتشه للخير على لسان زرادشت نيتشه :

ما الخير ؟..هو ما يعلو فى الإنسان بشعور القوة، وإرادة القوة، والقوة نفسها.

ما الشر ؟ .. هو كل ما يصدر عن الضعف.

ما. السعادة ؟ .. هى الشعور بأن القوة تنمو وتزيد، وأن مقاومة ماقد قضى عليها. لارضى، بل قوة أكثر وأكثر، لاسلام مطلقا، بل حرباً، لا فضيلة بل مهارة. الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا، هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية.

أى الرذائل أشد ضرراً ؟ .. الشفقة على الضعفاء العاجزين.

كان نيتشه عدو للمساواة، فالأقوياء لهم أخلاقيات مختلفة عن أخلاقات العبيد الضعفاء، وكان يرى أن كل جماعة لها قاموسها الخاص بتعريف الخير والشر، تشكل على مدى سنوات طويلة عبر التاريخ من تراكمات ثقافات وتراث وأساطير توارثتها الجماعة، إذا كانت المبادئ العامة لتعريف الخير والشر واحد مثل: لا تقتل، لاتسرق، لا تزنى، ...، ساعد المحتاج ، اعطف على المسكين، .. إلى آخره، فإن مواقف التطبيق قد تغير من التطبيق الفعلى لمبادئ الخير والشر، من هو المحتاج الذى يجب مساعدته، هل هو الشحاذ الذى يتسول فى الطريق أو عفيف اليد، وكيف يكون

القتل خطأ أو دفاع عن النفس، هل من يسرق لسد جوع الموت يستحق العقاب، مواقف كثيرة وتفسيرات أكثر، فسنت القوانين وظهر قطاع كبير من القضاة والمحامين ورجال النيابة، كل إنسان يفسر الخير والشر على هواه، قاصداً أو جاهلاً . . ينبع من هذا الاختلاف صراع لإثبات الذات، أنه نوع من الكبرياء الصادق أو الكاذب ، لكنه فى الحالتين يؤدى إلى عناد وصراع .

يرى الفيلسوف العربى القديم ابن سينا أن الشر بالنسبة إلى الأخلاق إنما هو شر بالقياس إلى السبب الفاعل له، أو بالقياس إلى قابله، أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع من فعله، فالظلم يصدر عن قوة تصبو للغلبة والسيطرة، وهى ما تسمى بالقوة الغضبية، وكمال هذه القوة فى التغلب، وهى خلقت لتكون متوجهة نحو السيطرة ولهذا تطلبها وتسعى لها، فهذا الفعل الظالم (بالنسبة للآخـــر) هو خير للفاعل، ولو قصر الفاعل فى تعظيم القوة لكان شراً بالنسبة له، فإذا كان الظلم شر للمظلوم، فإنه غاية الكمال بالنسبة للقوة الغضبية عند فاعله. لقد كانت فلسفة ابن سينا تنصب فى هذا المجال على أن الشر أمر لا مفر منه فى النظام الكونى القائم، ولكنه يرى أيضاً أنه بالرغم من انتشار الشر فبالقياس إلى الخير الموجود يعتبر طفيفا .

يستمد النبات حياته وينمو من الهواء والماء وأسمدة طبيعية وكيميائية يمتصها من الأرض، والحيوان أيضاً يستمد حياته أولا بالتغذية الطبيعية من الأم فى الصغر، ولكن ينمو يتغذى على النباتات والحيوانات الأخرى، ولكى يقوى ويسود يجب أن يصارع حيوانات أخرى أو حتى الإنسان .

كذلك العنصر البشرى فلكى يحيا السيد يجب أن يصارع ، فالحياة كما قال نيتشه هى إرادة استيلاء على الآخرين، هى إرادة استعباد واستغلال ، إرادة الاقتناء والزيادة فى الاقتناء، لا تسير الحياة بدون مقاومة من الآخرين ، إذاً لابد من استخدام القوة لقمع هذه المقاومة، فالحياة كفاح ونضال ، قدر نعيشه طالما نسعى إلى العلى والارتقاء، ونطلب السيادة والريادة .

الحياة صراع وكفاح دائم فهذا قدر الإنسان منذ الخليقة، صراع مع الذات، ومع الطبيعة ، مع المجتمع الذى نعيش فيه، نريد تلبية احتياجاتنا الأولية فإن نجحنا نطمع فى المزيد، نسعى نحو الرفاهية والاستمتاع بوقت الفراغ، فإن تحقق ما نسعى إليه نطمع فى المزيد وما أكثر طمع الإنسان، ننشد السيادة واستعباد الآخرين ، ونتطلع إلى الصعود والرقى، والوصول إلى السلطة، والحصول على المال والجاه، إن فشلنا فالمبررات كثيرة وكلها خارجة عن إرادتنا، وإن انتصرنا فنحن الأقوى والأذكى، نستحق ما حصلنا عليه وان كان غير شرعى أو كان من غير ذى حق.

يواكب الكفاح مقاومة من الطرف أو الأطراف الأخرى التى نخوض ضدها الصراع، وينتج من المقاومة جراح عضوية وانفعالات نفسية فيتولد الألم، هذا الألم الذى كتب عنه نيتشه :« إن إرادة القوة تنزع نحو المقاومات، ونحو الألم، وفى جوهر كل حياة عضوية إرادة ألم»، ومع زيادة ألم الإنسان تزداد قوته التى يستمد منها إرادته للوصول إلى الأعلى، والعلو نسبى لكل إنسان ولكل زمان، كان اقتناء الخيل أو السلاح من سيوف ونبال مطمع كبير فى الأزمنة الغابرة، فأصبح اقتناء السيارات هو مطمع الإنسان من عقود مضت أما الآن فإن الإنسان الطموح يصبو إلى تكوين الشركات العملاقة وامتلاك الطائرات والقصور، ليس فى مكان واحد بل فى جميع أنحاء كوكبنا حتى يستمتع بجميع فصول السنة وحتى لا ينتابه ملل الرتابة والتكرار.

كلما اشتد ألم الإنسان واشتدت انفعالاته ، كلما زادت قوته وكثرت إنجازاته، واختراعاته، وابتكاراته، فلم يكتب الشعراء أو الكُتاب أمثال تولستوى أو شكسبير أشعارهم ورواياتهم بدون انفعال ومعاناة داخلية، ولم يؤلف بيتهوفن أو شوبان أو غيرهم من عظماء الموسيقى السيمفونيات الرائعة بدون انفعال داخلى وشعور بألم، ولم ينحت أو يرسم مايكل أنجلو أو ليوناردو دافنشى أو فان جوخ وهم سعداء بحياتهم، قانعين وراضين عن أنفسهم وعن من حولهم.. أعظم الاختراعات والاكتشافات والتطوير مثل بحوث العمليات والإنترنت، تمت أثناء الحروب، ان قطاع كبير من الصناعة قائم على الأسلحة والأجهزة ومعدات الحروب، فالصراع والصدام ليس فقط من أجل البقاء بل من أجل السيادة والزيادة ، من أجل السمو

والعلو، ومن أجل الرفعة والقوة، حتى تسير قيمة الإنسان والحضارة الإنسانية إلى أعلى وبتطور دائم ، لا نقول إلى الأحسن، فالأحسن نسبى يختلف تقيمه وتقديره، من إنسان إلى إنسان، ومن زمان إلى زمان. فالإنسان القوى يبحث عن أنداده من الأقوياء ، يصادقهم ويسامرهم، يصارعهم وينازلهم، مباراة بين قوتين متساوتين تقريباً، منافسة قوى من أجل الارتقاء والتطور. . أما العبد الذليل فالقوى يتركه لانه زبالة الإنسانية، لا يستحق منا مجرد إلتفاتة، هذه هى فلسفة القوة فى عالم متعدد القوى، لا يحيا فيه الحياة الإنسانية إلا الأقوياء، أما العبد فيجب ألا يسمى بالإنسان بمجرد أن رضى بالاستسلام والعبودية.

من منطلق الفردية والاستقلال وميل السلوك الإنسانى إلى المزيد من السلطة والنفوذ، قامت فلسفة الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز فى القرن السابع عشر، على أساس أن الإنسان أنانى بطبعه يحاول قدر استطاعته أن يزيد من ثروته أو سلطته أو نفوذه إلى الحد الأقصى، فالإنسان فى رأى هوبز: « يهدف إما إلى الكسب أو المجد، أى أن الدافع وراء سلوكنا ليس محبة رفاقنا بقدر ما هو حبنا لأنفسنا» ، كما أن القيم والأخلاق والأخلاقيات - فى فلسفة هوبز - ليس لها معنى إلا فى إطار إشباع رغبات الإنسان : «الشرف هو أى شىء نملكه، أو أى شىء نفعله، أو أى صفة نتصف بها، ويكون دليلاً على القوة وعلامة عليها. فالسيطرة والانتصار أمران شريفان، لأننا نحصل عليهما بالقوة، والثروات شريفة لأنها هى القوة». كما كان رأى هوبز أن خير الناس هم تلك الآلات العقلية التى تستطيع أن تحصل على أقصى ما يمكن من الآخرين من خلال عملية المساومة، ولما كان كل شىء له قيمة وبالتالى له ثمن فإن خير الناس هم الذين يستطيعون البيع بأغلى الأسعار، والشراء بأقل الأسعار، حتى تزيد ثروتهم وعليه زيادة قوتهم.

كما يوجد الإنسان السيد وخادمه العبد، توجد الدولة القوية ذات السيادة، والدولة الضعيفة دولة العبيد، وبالتأكيد تتكون دولة العبيد من مجموعة العبيد وبعض الأسياد إن وجدوا، فهى دولة تتميز بالتخلف والخنوع، كما تتميز بانهيار روحها

المعنوية وتفكك الروابط بين أعضاء مجتمعها، أما الدولة القوية ذات السيادة العسكرية والاقتصادية فهى دولة مجموع الأقوياء، وما دام الجميع أقوياء فكلهم تقريباً متساويين، يعيشون فى حرية، أى دولة ديمقراطية ليبرالية، دولة لا تعيش فى تخلف أساطير الماضى العتيق ولا تتغنى بحضارة انتهت منذ آلاف السنين، فالزمن لايعود، والدورات التى هى إحدى سمات الكون هى دورات مركبة على خط اتجاه عام يشير إلى أعلى، فلم يندثر ما اكتسبناه من الحضارات القديمة، ولن يفنى ما اخترعناه وطورناه فى حضارتنا الحالية.

فى كتابة (نهاية التاريخ) كتب الأمريكى فرانسيس فوكوياما: « ان المجتمعات البشرية فى سلوكها الدولى تميل إلى التشبه بالسيد عند هيجل الذى يسعى إلى نيل الاعتراف ، أن دولاً معينة تسعى إلى ما هو أكثر من مجرد الحفاظ على الذات، فهى كالأفراد الثيموسيين تسعى إلى نيل الاعتراف بقدرها أو كرامتها على أسس قوامها الأسر الحاكمة، أو الدين أو القومية أو الأيدولوچية، ثم تضطر دولاً أخرى إما إلى الإذعان أو الدخول فى حرب، وكما أن تاريخ الإنسانية بدأ بمعركة دموية من أجل المنزلة، فإن الصراع الدولى يبدأ بصراع بين الدول من أجل نيل الاعتراف، وهو المصدر الأصلى للأمبريالية»، فالصراع هنا صراع قوى إثبات الذات ونيل الاعتراف، ولكن لا ننسى أيضاً العائد المادى والاقتصادى لنشوب الحروب واستعمار الدول، فكثيراً من المنازعات والحروب وراءها شركات عملاقة لتصنيع السلاح ومستلزمات الحروب، ونظرة سريعة لحروب الخليج فى التسعينيات وفى بداية الألفية الثالثة تثبت لنا أنه وإن كانت بداية الحرب إثبات سيادة دول أو عملية تحرير إلا أنها تحولت قبل أو بعد ذلك إلى حسابات للمكسب والخسارة، وتخطيط للحصول على الأموال. فى أبريل ٢٠٠٣ أثناء الحرب الأنجلو أمريكية / العراقية ظهر فى وسائل الإعلام بعض الصواريخ التى أسقطت على بغداد مدوناً عليها تاريخ الإنتاج ١٩٩٢. كان من الحكمة للنظام العسكرى الأمريكى التخلص من هذه الأسلحة التى كادت أن تنتهى صلاحيتها لإنتاج جيل جديد متطور من الأسلحة ، فتنتج المصانع وينتعش الاقتصاد الأمريكى على حساب شعب عانى من حكم ديكتاتورى . ولكن يحسب على

الشعب العراقى أن البعض منه قد رضى وساعد فى استمرار هذا النظام بالرغم من موت مئات الآلاف الذين رفضوا أن يحيوا عبيداً فى ظل نظام الطغيان.

العدالة هى عدالة القوة، والقيم هى قيم القوى، هل يستطيع ما تبقى من الهنود الحمر أن يطالبوا بوطن على أرض الولايات المتحدة الأمريكية كما طالب وخطط وصارع وانتصر الشعب اليهودى لإقامة دولته على أرض الميعاد، البون واسع بين الحالتين ، فالهنود الحمر هم الآن جماعات متناثرة ضعيفة أمام دولة قوية عسكرياً واقتصادياً، واليهود الآن قوة عسكرية واقتصادية استطاعت أن تكسب سياسياً وثقافياً قوى غربية أخرى بجانبها، ضد دول ضعيفة. الفرق هو الإرادة التى تدعمها الدراسة والتخطيط، والفرق أيضاً هو العقل الذى وهبه لنا الله تعالى فاستعمله البعض بحكمة واستغنى عنه البعض الآخر، الفرق واسع بين من يثير فى نفسه إرادة القوة وبين من يثير فى نفسه شهوة الجسد، والفرق كبير بين الحرية والديمقراطية وبين الديكتاتورية والاستبداد والطغيان.

الضعيف يطالب بالعدالة، والقوى له معايير للعدالة مختلفة عن عدالة الضعيف، قد يرضى الضعيف بأنصاف الحلول أو قد يرضى بما يمن عليه القوى من نفاياته وبواقى رفاهيته، فسياسة الضعيف هى التساهل والتسامح ومساومة المغلوب على أمره، أما سياسة القوى هى ما لا يقتلنى يزيدنى قوة، فهى سياسة ناشئة من الخوض فى المخاطر، وفى هذا المجال يقول نيتشه: « إن الأسباب التى تؤدى إلى جعل الضعاف من الناس صغاراً حقراء، هى عينها التى تدفع الأقوياء إلى العظمة والارتقاء».

الموت حقيقة ثابتة، ومن الأجدى ألا نعيش حياة طويلة ومملة، حياة مليئة بالرتابة والسأم يسودها السلام والطمأنينة وانتظار ما يمليه علينا الأسياد ونسميه انتظار القدر، فلتكن الحياة قصيرة ولكن خصبة، مليئة بالمخاطر والصراع، الضعيف هو من يخاف الموت، أما القوى فهو يرحب بأى تغير فالرتابة عنده بؤس والسكون عنده شقاء.

طالب نيتشه بأحقية الإنسان الأعلى أو الإنسان الممتاز (Super Man) أن يتبؤ المكانة الجديرة به فى أعلى السلم التصاعدى أى (فوق المنصة) ليسود الآخرين، فدعى إلى الفردية التى تقدم الفرد على المجموع طالما أن هذا الفرد قوى وذكى ومتفوق على الآخرين، أن الفرد فى رأى نيتشه هو (الذى تحيا فيه الإنسانية وفى غيره لا يمكن أن تحيا)، ليس الفرد السلبى المنعزل عن المجموع بل الفرد الذى يقود المجموع، هذا المجموع الذى يجب أن يسير خلف الإنسان الأعلى تاركاً له مسافة من التقدير والاحترام. . لا يوجد مساواة بين الناس، فطبيعة هذا الكون هى التباين بين الأفراد، والطبقات بين الجماعات، ولولا هذا التفاوت والتباين لما وجد للنظام الإنسانى معنى، فإن ساد العدل والمساواة والحب فسيتحول هذا النظام إلى نظام كئيب سمج، رتيب وممل، فصراع الفروق هو الذى يعطى للمنتصر لذة وسعادة عند الانتصار، كما يعطى للمهزوم أملاً فى الصراع القادم، كما يعطى هذا الصراع لكل من المنتصر والمهزوم حافز ليستمر المنتصر فى انتصاره ويطور المهزوم من نفسه من أجل الانتقام.

نعود إلى ما كتبه نيتشه عن الإنسان الأعلى: « يحلق تحليقاً حراً دون خوف ولا وجل فوق الناس والأخلاق والقوانين والتقييم التقليدى للأشياء. . يجب ألا يتعلق بشخص ما حتى لو كان هذا الشخص أحب الأشخاص إليه. . فكل ارتباط قيد وكل تعلق سجن، لا يتعلق بوطن معين ولا بأى نوع من أنواع الشفقة أو العطف». . فالإنسان المتميز لا يبالى بفضائل أو معايير الآخرين، فقيمه ومعاييره هى التى تسود. . فهو كما رسمه نيتشه: « إن هذا الإنسان الأعلى هو الذى يحدد معتقدات العصر بأكمله، ويعطى للحضارة صورتها، ويخلق القيم فى حرية تامة، لا يأبى للخير والشر، أو الحق والباطل». لقد وضع هذا السيد أو الإنسان الأعلى القيم والمعايير وعلى الآخرين تقديم فروض الطاعة والولاء. . نعم هذا السيد حر ولكن الحرية بمعناها ألا يبالى بالقسوة والحرمان، لا ينشد السعادة والاستقرار، حر بألا يجعل أى شىء يتحكم فيه أو يضعفه ولا حتى غرائزه وشهواته، حتى الموت إن جاء فمرحباً به ما دام عاش حراً ، فليمت حراً، إنه السيد - الإنسان الأعلى.

كتب نيتشه على لسان زرادشت: « ناصحاً هذا الإنسان الأعلى: ستجثون سعياً وراء عدوكم ، وستناضلون وتجاهدون من أجل أفكاركم، لا أوصى بالسلام، ولكن بالظفر والانتصار، فليكن عملكم إذاً نضالاً، وسلامكم انتصاراً». . عاش على فكر نيتشه كثيرون، والتاريخ ملىء بقصص الصراع وقصص السيادة والعبودية، منهم السيد الارستقراطى الذى نادى به نيتشه ومنهم الطاغى الذى يحسب نفسه أو ينادى به الناس تملقاً وخوفاً، من الأسياد، ولكن يتملكه طباع العبيد، وله صفات الرقيق . . ندر أن وجد هذا السيد أو الإنسان الأعلى الذى نادى به نيتشه، فالإنسان بغرائزه المتضادة ونظمه المتشابكة المعقدة لا يمكن أن يتكون منه إنسان نيتشه الأعلى لأن الإنسان دائماً وأبداً هو السيد العبد، حتى لو مال البعض إلى السيادة، والبعض الآخر إلى العبودية فمازال داخل السيد جزء من طباع العبيد، ومازال داخل العبد جزء من طباع السادة، قد يختلف السلوك وفقاً للموقف ولكن هذا النذر البسيط من أخلاق السيادة أو العبودية مازال بداخلنا.

عاطفتان هامتان تستمدا قوتيهما من الحمية والكبرياء وهما العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية. . الإنسان السوى يحب دينه ويدافع عنه كما يحب وطنه ويزود عنه وقت الشدة، ولكن قد تتضخم هذه العاطفة عند بعض البشر فيغالون فى الحماسة، أنهما نوع من التقدير للذات والتقدير للجماعة التى ينتمى إليها الفرد، هذا النوع من العواطف يستمد قوته من الرغبة فى نيل التقدير والاعتراف كما كتب فوكوياما فى كتابه نهاية التاريخ ، فالفرد يغضب إذا استخف آخر بدينه وسب وطنه وقد يدفع حياته ثمناً للدفاع عنهما. . لقد كانت هاتان العاطفتان سبباً فى حروب كثيرة وطويلة عبر التاريخ ومازال البشر يعانى من ويلات تعارض الجماعات أو الشعوب فيما يخص مثل هذه العواطف.

الوطن هو المكان الذى يعيش فيه الفرد أو يستثمر فيه ماله، وما العولمة إلا توجيه الأنظار والاهتمام إلى عالم يضم جميع الشعوب والدول فى وطن واحد دون التقيد بلغة أو حدود أو عقيدة، لقد وجدت ثقافة مشتركة بين سكان كوكب الأرض، سنجد مشروب (الكوكاكولا والبيبسى كولا) فى الولايات المتحدة وأوروبا، كما

سنجده فى روسيا والصين، وانتشرت محلات (كنتاكى وماكدونالدز) فى الشرق كما انتشرت من قبل فى الغرب.

فالحضارة الغربية تحول الصراع الآن من صراع عاطفى إلى صراع اقتصادى، ومن صراع حمية الكرامة والسيادة، إلى صراع قوى قائم على مبدأ: أنا أربح وأنت أيضاً تربح (Win - Win Approach) لا أعتقد أن اللعبة تسير دائماً على هذا المبدأ، فإن غرائز حب البقاء وغرائز إثبات الذات تشد اللعبة إلى: أنا أربح وأنت تخسر(Win - Loose Approach) أو على الأقل أنا أربح أكثر وأنت تربح أقل.. أنه نوع من الصراع الغير دامى ولكنه مرتبط بالسيادة والعبودية، فالمادة قوة وهى من دعائم السيادة، والفقر والحاجة ضعف وهى أساس العبودية.

هل ترتبط سياسة القوة بالنظام الديمقراطى الليبرالى، قد أجاب فوكوياما فى كتابه نهاية التاريخ عن هذا السؤال بقوله: «لا تزال سياسة القوة هى السائدة بين الدول التى لا تأخذ بالديمقراطية الليبرالية، وسيؤدى التأخر النسبى فى وصول التصنيع والقومية إلى العالم الثالث، إلى اختلاف حاد بين سلوك الكثير من دول العالم الثالث من جهة، وبين سلوك الديموقراطيات الصناعية من جهة أخرى، وسينقسم العالم فى المستقبل المرئى إلى شطر تخطى التاريخ، وشطر لا يزال غارقاً فى التاريخ. وفى عالم ما بعد التاريخ سيكون الاقتصاد هو المحور الرئيسى للتفاعل بين الدول، فى حين تتضاءل أهمية القواعد العتيقة لسياسية القوة».

بالتأكيد أصبحت الدول فى الوقت الحالى تسعى إلى رفاهية شعوبها من خلال إدارة اقتصادية رشيدة، ولكن لم تخفض الدول الغربية ذات الصفة الديمقراطية الليبرالية من إنفاقها العسكرى، لقد تضخم قطاع الصناعات العسكرية والصناعات المغذية له فى هذه الدولة وأصبحت العمليات العسكرية عائد مجزى لها، وإن لم تقم حرب فمن السهل بالتخطيط المحكم تنفيذ سيناريو حرب وضع مسبقاً، وفى صراع الخليج العربى ودول البلقان مثال على ذلك.. لن تنتهى سياسة القوة طالما يوجد كل من الطمع الإنسانى لجنى أرباح من العمليات العسكرية، وحمية الكبرياء الكاذب التى توهم النفس بالتفوق عن الآخرين.

الجماعة هى مجموعة أفراد، يوجد بينهم تأثير متبادل ، كما تأثر الجماعة فى الفرد، تتأثر الجماعة أيضاً بذاتية الفرد، يجمع ما بين الجماعة ثقافة واحدة، ولغة للتفاهم وتبادل المعلومات، وما الدولة إلا مجموعة كبيرة أو مجموعة من الجماعات قد يجمعها ثقافة واحدة أو عدة ثقافات، وقد يجمعها لغة واحدة ودين واحد، أو عدة لغات وعدة ديانات. . تعددت الأسباب المؤدية إلى استخدام القوة ونشوب النزاع بين الدول، فمنها أسباب اقتصادية مثل السيطرة والنزاع على حقوق التجارة والموارد الطبيعية، ومنها دينى/ قومى/ عنصرى/ ثقافى، ومنها نفسى لتفريغ الطاقة العدوانية الكامنة داخل الفرد الذى يعتبر نواة المجتمع والدولة. . إذا كان الإغريق قد اشتهروا بحبهم للحروب والاعتداء على الدول والشعوب المجاورة دون مراعاة لأى قواعد أو علاقات إنسانية، فإن بعض الفلاسفة الرومان قد حاولوا تحديد مشروعية الحروب بما يسمى بالحرب العادية وهى التى تبدأ - حسب اعتقادهم- بموجب القوانين وتحظى بموافقة الحكماء، ومتماشية مع مشيئة الآلهة. . وضع الرومان القدامى قواعد وأسباب للحروب، وهى الإخلال بمعاهدة أو الاعتداء على السفراء، أو إنتهاك حرمة الأراضى الرومانية، أو مساعدة أحد أعداء روما.

أعاد جروشيوس فى القرن السابع عشر مفهوم الحرب العادلة باعتبارها وسيلة للسيطرة على استخدام القوة، بعزل الأسباب الدينية والعقائدية ، فبين أن الأسباب العادلة للحرب هى الدفاع عن النفس، وحماية الممتلكات، ومعاقبة المعتدى على حقوق الدولة أو على مواطنيها، كما عدد جروشيوس الأسباب الغير عادلة للحروب، مثل التوسع الجغرافى، وإخضاع دول أخرى للسيطرة بدون رغبة منها، ذهب مفكرو القرن الثامن عشر إلى اعتبار الحرب ضرورة لسيادة الدولة، ومن مبدأ المساواة بين الدول يجب أن تتعهد الدول بالمحافظة على التزاماتها، واحترام المعاهدات التى تعقدها، والامتناع عن التوسع الإقليمى والتدخل فى شئون الغير، واللجوء إلى الوسائل السلمية لحل النزاع مثل المفاوضات والتحكيم والوساطة، وبناءً على ذلك اعتبرت الحرب مسألة واقعية متعلقة بالقانون الطبيعى، فإذا ما وقعت الحرب، فإن القانون الذى يطبق هو قانون الحرب والحياد، بغض النظر عن كيفية قيام

الحرب وعدالتها.. أنهت معاهدة فرساى عام ١٩١٩ الحرب العالمية الأولى، وأنشئت عصبة الأمم عام ١٩٢٠ ، وفى عام ١٩٤٥ وبعد الحرب العالمية الثانية تكونت الأمم المتحدة، والذى نص ميثاقها على حفظ السلام والأمن الدولى، وإنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس التساوى فى الحقوق وحق تقرير المصير، وعلى مبدأ حل النزاعات حلاً سلمياً والامتناع على التهديد باستخدام القوة، فلا تم الاستغناء عن القوة ولا انتهت الحروب.. لا يدعونا الاستمرار فى استخدام القوة لليأس والتسليم، فالداعين للسلام والوفاق تواجدوا منذ بداية وجود النظام البشرى، وقد يستمروا حتى نهاية هذا النظام، ولكن مبدأ القوة كما هو كائن داخل الإنسان سيتمر أيضاً بين الدول.

كما انتهج الفرد فلسفة القوة، تبنت الدول أيضاً سياسة القوة، لم تعد القوة العسكرية وحدها كافية للسيطرة والهيمنة ، فيوجد عوامل أخرى يجب توافرها حتى تستطيع الدول فرض إرادتها وتسير باقى الدول فى ركابها.. إن الاقتصاد والمال والمؤسسات العملاقة، والبحث العلمى، فى جميع أفرع الطب والهندسة والزراعة والصناعة والكيمياء والفضاء.. ووسائل الاتصال ، كلها قوى أخرى لازمة لضمان استمرار التفوق وفرض الإرادة، فالقوة حالياً هى كما كتب صامويل هنتنجتون: «قدرة فرد أو جماعة ما على تغيير سلوك أو جماعة أخرى، والسلوك يمكن أن يتغير عن طريق الإقناع أو القسر أو النصح ، والذى يتطلب بدوره أن يكون لدى مستخدم القوة مصادر اقتصادية وعسكرية ومؤسسيه وديموغرافية وتكنولوچية واجتماعية أو غيرها.. قوة الجماعة أو الدولة هكذا تقدر عادة بحساب المصادر الموجودة تحت تصرفها فى مقابل تلك التى فى يد الدول أو الجماعات التى تريد أن تمارس نفوذا عليها».

فى كثير من الأحيان لا تكفى القوة وحدها للسيطرة والهيمنة ، قد تؤدى المقاومة ذو الطبيعة الحرة إلى خسارة كبيرة إلى مستخدمى القوة، فالإنسان السيد الحر، تأبه عليه كرامته أن يستلم، ويسير مصيره إلى الكفاح والموت على أن يعيش عبداً ذليلاً، وقد تعلمنا فى العقود الأخيرة من تجربة العمليات الإرهابية أو الفدائية (من

وجهتى نظر الطرفين النقيضين)، أن اليأس يكلف الطرف الآخر الكثير فى عملياته التدميرية الانتحارية. . وتعتبر نصيحة جيمس سكوت فى المرجع السابق ذكره حكمة هامة فى استعمال القوى خاصة فى العصر الحديث حيث تعددت مراكز القوى: «ان المرء لا يمكنه أن يحكم عن طريق القوة وحدها. . صحيح أن القوة تكون عاملاً حاسماً، ولكن من المهم أيضاً إن يحوز المرء على ذلك العنصر النفسى الذى يحتاجه مروض الحيوانات للسيطرة على حيوانه، إن على المحكومين أن يظلوا على قناعة بأننا نحن المنتصرون» . . لقد فشل الأمريكان فى الستينيات والسبعينيات فى القضاء على الفيتناميين، ولكن تعلم الغرب الدرس ونجح فى تعبئة الرأى العام العالمى قبل تدخلها فى حربى الخليج والبلقان فى العقد الأخير من القرن الماضى.

بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، وتحوله من دولة رائدة إلى دولة تابعة، أصبح الغرب بمفرده متمثلاً فى الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية، القوة العظمى المسيطرة على مجريات الأمور فى نهاية القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة. . فهذه الدول تملك نظاماً مصرفياً قوياً وتتحكم فى جميع العملات الصعبة، ولها القدرة فى التدخل العسكرى على نطاق واسع، وتتحكم فى الطرق البحرية، والتكنولوچيا الحديثة، كما أنها تسيطر على الصناعات الخاصة بالفضاء ووسائل الاتصال العالمية وصناعة الأسلحة الحديثة ذات التقنية العالية. . أصبح الغرب كما يقول هنتجتون: «مسيطر بشكل طاغ وسيظل رقم واحد من ناحية القوة والنفوذ فى القرن الواحد والعشرين»، تلهث وراءه الصين مدعمة بأراضيها الواسعة، ورخص الأيدى العاملة، والدعم المعنوى من بعض دول آسيا والجاليات الصينية الكثيرة المنتشرة فى جميع بقاع المعمورة.

أنهكت القوى العسكرية والمنافسة فى مجال الفضاء اقتصاد الاتحاد السوفيتى، فتداعى نظامه وانفرط عقده، قد تكون خطة مسبقة من الغرب، أحكم تنفيذها للقضاء على الشيوعية وأنفراد الرأسمالية والاقتصاد الحر بقيادة اقتصاد العالم. . هل لنا أن نتخيل أنه فى بداية الألفية الثالثة يصل متوسط الدخل القومى للفرد فى الدول الغربية ما بين ثلاثين وأربعين ألف دولار، بينما لا يتعدى هذا الرقم فى بعض البلاد

الفقيرة فى آسيا وأفريقيا مائة دولار.. والشىء الذى يدعو للحزن والأسف، أن معظم الصراعات والمنازعات التى نشبت فى القرون الماضية هى بين الدول الفقيرة ذات الموارد الضعيفة، والتى تشترى بإمكانياتها المحدودة أسلحة وعتاد عفى عليها الزمن من مخزون القوى الكبرى، والتى تستغنى عنها للسذج من البشر أو الدول، بعد تطوير وتحديث أسلحتها ونظمها العسكرية.

مارسوا الطغاة أساليب كثيرة لتحطيم عقائد معارضيهم، أى تحويل الإنسان الحر إلى عبد.. انتشر فى أول النصف الثانى من القرن العشرين مصطلح غسيل المخ (Brain Washing) كان الغرض من غسيل المخ هو إعادة تشكيل أفكار الفرد لتتماشى مع النظام المستبد السائد.

أنها عملية تحطيم الكيان الفكرى للفرد أو المجتمع وإحلال فكر جديد يضمن للنظام السيطرة والبقاء.. استخدمت أساليب كثيرة لغسيل العقول البشرية، كان أكثرها قسوة الإيذاء البدنى والنفسى.. استخدام الطغاة وسائل كثيرة للتعذيب، لاستخلاص اعتراف ، أو السيطرة على سلوك معتقليهم ، أو لضرب أمثلة لبقية الأفراد أو المجتمعات حتى ينتابهم الخوف واليأس، فيكفوا عن المطالبة بحقوقهم السياسية والمادية والاجتماعية.. استعمل الحبس فى حجرة كئيبة وقذرة لقهر المعتقلين، عزلوهم عن العالم الخارجى، فعاشوا سنوات طويلة بدون أى اتصال بالبيئة الخارجية، لا يستطيع المعتقل أن يميز ليله من نهاره، يقضى السنوات الطوال دون أن يسمح له بالقراءة أو الاستماع إلى مذياع، أو حتى معتقل آخر يؤانسه، منعوا عن المعتقل النوم لأيام طويلة، حتى تحدث للمعتقل اضطرابات نفسية وعقلية، يعيش المعتقل ويقضى حاجته فى نفس المكان.. ما أكثر ما امتهن الإنسان، قد يتمنى المعتقل موته فلا يجد إلا الإهانة والإذلال.

إذا كانت القوة هى القدرة على إحراز نتيجة تضمن تحقيقاً للمصالح والرغبات، فمن المستحيل تساوى القوى بين أفراد البشر، كنتيجة لاختلاف الميراث البيولوچى والسيكولوچى والاجتماعى، ولتباين تراكم الخبرات والتجارب المكتسبة عبر سنوات

عمر الفرد. . شرح وبرر الفيلسوف الأغريقى أرسطو فى افتتاحية كتابه "السياسة" الاختلافات فى السلطة واستعمال القوة بين الأسياد والعبيد، وبين الأزواج والزوجات والأبناء، أيضاً سرد الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو فى القرن الثامن عشر أسباب عدم المساواة فى القوة فى مقالته "محاضرة عن جذور عدم المساواة" وأرجعها روسو إلى عدم المساواة فى الملكية. كما قدما ماركس وأنجلز تفسيراً مشابهاً فى "البيان الشيوعى".

ما هى عناصر القوة ؟ أى العناصر التى يمكن من خلالها وعن طريقها الحصول على القوة . يمكن تلخيص هذه العناصر فى النقاط الثمانى التالية:

١ - **السلطة والحكم** : للحصول على مزايا مباشرة «مثل الأصول والمكافآت المادية وغير المادية، متع ترفيهية. .» ، ومزايا غير مباشرة «مثل توظيف الأهل والمعارف، خدمات متميزة. .» كذلك التحكم فى أقدار عدد كبير من البشر خلال المكانة والوضع الوظيفى.

٢ - **النفوذ** : تحقيق الرغبات والوصول إلى ما نبغيه عن طريق الآخرين «الاتصالات، علاقات عامة ، تبادل منفعة. .».

٣ - **المال** : لشراء الاحتياجات المادية وغير المادية والتملك ، وشراء مجهود وعمل الغير، واستمالاتهم إلى جانبنا فى الأزمات والنزاع.

٤ - **السلاح** : إجبار الآخرين للخضوع لإرادتنا ، رغما عن إرادتهم ، بقوة السلاح.

٥ - **الإعلام** : الترويج للأفكار والمعتقدات التى نعتنقها لما فيها مصلحتنا الشخصية، مستخدمين جميع الوسائل النفسية، والاجتماعية ، والإعلانية.

٦ - **الجاذبية الشخصية** : أو الكاريزما (Charisma) ، وهو مصطلح مستمد من كلمة يونانية بمعنى (نعمة إلهية) ، وتعنى هنا قوة الشخصية والقدرة على الإقناع، وسحر البيان، والوعود البراقة لتحقيق مصالحنا والوصول إلى رغباتنا، مثال على

الكاريزما، الزعيم الهندى غاندى الذى لم يملك السلطة، أو النفوذ، أو السلاح ، أو الإعلام، ولكن كان لديه قوة الكارايزما ليقود الشعب الهندى.

٧ - **العلم والمعلومات** : استخدام العلوم المختلفة، المادية منها مثل الكيمياء (أدوية مخدرة أو مؤثرة فى وظائف إدارة الجسم) ، والهندسة الوراثية ، وعلوم إنسانية (علم نفس، اجتماع) واستخدام السحر والغيب والخرافات للتحكم فى الفئات التى تؤمن بهذه المعتقدات، وكذلك استخدام المعلومات للحصول على المال بطريقة شرعية أو عن طريق الابتزاز.

٨ - **التسلط النسائى** : (Matriachy) من خلال الجنس ، والعاطفة، ودموع التماسيح، أى استخدام الضعف الأنثوى كقوة للسيطرة على الرجال.

كان ومازال السعى إلى الحكم هدفاً للحصول على القوة. رأى الفيلسوف السياسى الإنجليزى توماس هوبز فى القرن السابع عشر، أن البشر بطبيعتهم أنانيين يسعون دائماً إلى القوة، كما وردت أرائه فى كتاب روبرت دال "التحليل السياسى الحديث" فى قوله: « إن الناس تدفعهم عواطفهم ورشدهم عقلهم، وإن العاطفة هى بمثابة الريح التى تملأ أشرعة السفن، فى حين أن العقل هو بمثابة اليد الممسكة بالدفة، وفى مجاز آخر، نجد أن الإنسان بمثابة المركبة التى تجرها جياد العاطفة غير المستأنسة ويوجهها العقل. والرغبات الإنسانية الشرسة. ولكن العقل يفرض الاعتدال، وبمساعدة العقل يستطيع الناس أن يكتشفوا قواعد أو مدركات عامة تمكنهم من تحسين فرص الوصول إلى الغايات التى تمليها عليهم عواطفهم. ومن ثم فإن كل الناس يسعون إلى القوة من أجل إشباع عواطفهم، ولكن عقولهم هى التى تدلهم إلى كيف يسعون إلى القوة بصورة تقلل من الإحباطات والهزائم واحتمالات الموت العنيف».

أكد عالم العلوم السياسية الأمريكية هارولد لازويل على ما ورد فى نفس الكتاب السابق: « أن الساعى إلى القوة إنما يقوم بذلك كوسيلة لتعويض الحرمان النفسى الذى عاناه أثناء مرحلة الطفولة. . وأن أشكال الحرمان النمطية التى يعتقد أنها

تستثير السعى إلى القوة، تتمثل فى افتقاد الشعور بالاحترام والدفء فى سن صغيرة، والذى يؤدى إلى تقلص الشعور بتقدير الذات.. وفى مرحلة الطفولة أو بعدها، يتعلم الساعون إلى القوة كيف يعوضون هذا الشعور المتمثل فى انخفاض تقديرهم لذواتهم من خلال السعى نحو القوة، فحصولهم على القوة يجعلهم مهمين ومحبوبين ومحترمين ومقدرين.. إن الساعين إلى القوة لا يملكون بالضرورة وعياً وإدراكاً واضحاً لسبب سعيهم وراء القوة، فهم عادة ما يبررون سعيهم إلى القوة فى عبارات تقبلها قيمهم الواعية، وربما تقبلها أيضاً الأيدولوچية السائدة بين هؤلاء الذين ينتمون إليهم». تناسى لازويل الدوافع الأخرى الفطرية الكامنة داخل البشر من غرائز وعواطف مركبة، وميول عدوانية يدعم تفريغها تملك القوة.

يقدر بعض الساعين إلى القوة تكلفة الحصول عليها، بحساب الفائدة/ التكلفة (Benefit/cost) ، لاتخاذ القرار من جدوى السعى والتضحية بأشياء أخرى كثيرة للحصول على القوة من عدمه.. بشيء من الدقة فى المعلومات المتاحة، وتحليل الاحتمالات والمخاطر (Risk Analysis) يمكن حساب الفائدة المتوقعة، أما التكلفة فيمكن اعتبارها تكلفة الفرصة البديلة (Opportunity Cost) للسعى وإنفاق الموارد المالية والمجهود والوقت للحصول على النفوذ، أو القوة بصفة عامة.. تختلف تكلفة الفرصة البديلة من شخص لآخر طبقاً لطبيعة عمله ووضعه الاجتماعى وتكوينه النفسى، قد يميل البعض إلى الراحة والاستقرار النفسى والعصبى مما يجعل تكلفة الفرصة البديلة مرتفعة لعدم توافق سعى الحصول على القوة مع الراحة والخلود إلى الاسترخاء والاستمتاع بمباهج الحياة، فالحصول على القوة يستلزم العيش دائماً فى خطر وعدم استقرار كل شيء له ثمن، وثمن القوة غالٍ، ولكنه يستحق السعى عند بعض الناس.

طيفٌ أنت أيها الإنسان، تجيء وتذهب لا يشعر بك إلا القليل من الكثير، فعشها قوياً، دمر، فلن ينتهى الكون بتدميرك ، يجب أن يكون تدميرك قوى وسيطرتك شاملة ، أنت سائر إلى الموت، فاجعل ذكراك سطوراً فى التاريخ، إذا كان فى داخلك خير فافعل الخير وتعذب من غدر الآخرين، ولكن إذا دمرت فلن تندم،

فالموت سينهى كل شىء، سيحجب العذاب ويحجب الندم، انهى حياتك بيدك إن لم تستطع أن تستخدم القوة الموجودة فى الكون، فى كل مكان حولك توجد القوة، إن لم تستخدمها أنت استخدمها الآخرين، فلماذا لا تكون أنت الرائد وأنت الأفضل.. الإنسان لا يخاف إلا من القوى، فعش قوياً ولو لمجرد لحظات قليلة، شعور عظيم ورائع، شعور أعلى من جميع اللذات حتى من اللذة الشبقية.. أن تكون متفوقاً بالقوة.. فلسفة القوة لها عشاقها ومطبقيها فى نظام كونى قائم لمجموعة شاملة (Global Set) تحوى على كل شىء وارد فى ذهن الإنسان، فلسفة انتهجتها أيضاً بعض الدول الكبرى، وما الدول إلا مجموعة أفراد لهم نفس الفلسفة، ويعيشون بنفس المنطق.

obeikandl.com